

العنوان:	لاهوت التاريخ البشري
المصدر:	مجلة الجمعية الفلسفية المصرية
الناشر:	الجمعية الفلسفية المصرية
المؤلف الرئيسي:	اليسوعي، فاضل سيداروس
المجلد/العدد:	مج6، ع6
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1997
الصفحات:	285 - 321
رقم MD:	359646
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	HumanIndex
مواضيع:	التقليد الكنسي، اتجاه التاريخ البشري، اللاهوت ، الأركيولوجيا، الوجود، الخلاص، حرية الإنسان، التاريخ الاجتماعي، الواقعية، الجدلية
رابط:	https://search.mandumah.com/Record/359646

لاهوت التاريخ البشرى

الأب / فاضل سيداروس اليسوعى

المقدمة

إن كان التاريخ هو دراسة الأحداث التاريخية في كيفية حدوثها وأسبابها ونتائجها ، فإن لاهوت التاريخ هو توضيح معنى الأحداث التاريخية ، فيجيب عن التساءلات : لماذا

(ولا كـب) ؟ وما هو اتجاه هذه الأحداث ؟ فمن أين تأتى وإلى أين تؤدى ؟ ...

فسنركز في مداخلتنا هذه حول لاهوت التاريخ البشرى^(١) على اتجاه التاريخ من جهة ، وعلى معناه من جهة أخرى . فسنسأل : ما هو اتجاه التاريخ البشرى ؟ أي تسلسله الزمني من الماضي إلى المستقبل مروراً بالحاضر ، وهذا هو المعروف فلسفياً بالـ Diachronia وما هو معناه في نظرة إجمالية إليها ؛ وهذا هو المعروف بالـ Synchronia فكلاهما وجهاً وعملاً واحدة ، ومقاربتان متكاملتان لحقيقة لاهوت التحرير البشرى الواحد . فلولا التسلسل الزمني ، لوقع لاهوت التاريخ في فخ النظريات والمثاليات لأنه لا ينطلق من الواقع التاريخي . ولولا البحث عن " المعنى " - وهو من أهم قضايا الفلسفة واللاهوت المعاصرة - لوقع لاهوت التاريخ في فخ انغلاق التاريخ على نفسه . ولذلك ، فإن كلتا المقاربتين تكمّلان بعضهما بعضاً ، وتُثيران بعضهما بعضاً ، وتستجلبان مفهوم لاهوت التاريخ البشرى.

وحرى بالإشارة أن مداخلتنا هذه ستعتمد أساساً على تيارين مسيحيين :

الشرقيّ المتمثّل في الفكر الروسيّ في القرنين ١٩ ، ٢٠ المعتمد أساساً على الآباء

الشرقيين والغربي المتمثل في الفكر اللاتيني المعاصر المعتمد أساساً على أوغسطينس (٢) .

* * *

المقاربة الأولى :

اتجاه التاريخ البشري

ننطلق من الأوقات الزمنية الثلاثة ،وهي تكون لُحمة حياة الإنسان ، وتعتبر مادة التاريخ البشري :الماضى والحاضر والمستقبل .وفى سبيل ذلك ، ننطلق من قولين : أحدهما شرقى و الآخر غربى ، لنوضح الإشكالية فدور كل من الأوقات الزمنية الثلاثة :

" انه لخطأ أن نعتبر الشعوب والمجتمعات تحيا فى الحاضر ، فنكاد ندرك الحاضر . ولكننا نحيا أكثر فى قوة الماضى والانجذاب نحو المستقبل " (Nicolas Berdiaeff).

فالتاريخ البشرى هو هذه الأوقات الثلاثة ، فليس هو عودة إلى الماضى ، بل هو الحياة الحاضرة التي يحياها الإنسان فى ضوء بل و" فى قوة " الماضى . فضلا عن أن الحاضر هذا يتطلع فى " انجذاب " نحو المستقبل .

ويمكننا تطبيق كلام Soren Kierkegaard فى الحياة على الحاضر المعاش :

" لا يمكن فهم الحياة إلا بالنظر إلى الماضى .

ولكن لا يمكن عيش الحياة إلا بالنظر إلى المستقبل " .

فالماضى يساعد على " فهم " الحاضر ، والمستقبل على "عيش" الحاضر .

ويمكننا تطبيق كلام Soren Kierkegaard فى الحياة على الحاضر المعاش :

" لا يمكن فهم الحياة إلا بالنظر إلى الماضى .

ولكن لا يمكن عيش الحياة إلا بالنظر إلى المستقبل ."

فالماضى يساعد على " فهم " الحاضر ، والمستقبل على "عيش" الحاضر .

فإنَّ الحاضر البشرى متجه نحو الماضى ونحو المستقبل معاً ، فى اتحاد وثيق بين الأوقات الثلاثة :

" يتحقق هذا الترابط السرى بين الماضى والمستقبل تحقيقاً مستديماً فى التاريخ الذى بدوره لا يكون هناك تماسك " (N. Berdiaeff) .

فالترباط بين الأوقات الثلاثة يتسم بأنه "سرى" أى ما يفوق الإدراك البشرى وما يتجاوز التاريخ نحو "ما وراء التاريخ" * كما سنراه . ثم إن التاريخ الحاضر هو عنصر الترابط والتماسك ، إذ إنه يتفاعل معهما ، ومن مُنطلقه يعى الإنسان ماضيه ومُستقبله .

نستشف من ذلك كله البون الشاسع بين المسيحية واليونانية . فبينما الزمن (Chronos) لدى اليونانيين عبارة عن أدوار متكررة ، والنظرة إليه كدائرة ، ولذلك فهو حقيقة دُونِيَّة وغريبة عن الإبداع ، فإنه فى المسيحية — ومن قبلها فى اليهودية — ، كالخط الذى له بداية — وهذا ما نُسَميه " الأركيولوجيا " (Archeologia) * أى الحديث عن البدايات — وله نهاية — وهذا ما نُسَميه " الإسكتولوجيا " (Eschatologia) * أى " الحديث عن النهايات " — وله غاية ومعنى — وهذا ما نُسَميه " التليولوجيا " (Teleologia) * أى " الحديث عن الغاية / المعنى " — وبالتالي فإن الزمن حقيقة عليا حيث الإبداع الخلاق .

فاندقق النظر فى علاقة التاريخ بالماضى أولاً وبالمستقبل ثانياً.

١-لاهوت التاريخ والماضى :

للماضى ثلاثة مستويات : الأركيولوجيا أى الماضى المطلق أو البداية المطلقة أو ما قبل التاريخ ، حيث تدخل الله بالخلق ، وتاريخ الخلاص حيث تدخل الله فى تاريخ البشر ليخلصهم فيقطع معهم عهداً ، وهو منقسم قسمين : العهد القديم — مع إسرائيل الشعب المختار — والعهد الجديد — مع يسوع المسيح — ، والتقليد أى عصر الكنيسة . لنحلّ كلّ صعيد من الثلاثة على حدة :

أولاً — لاهوت الأركيولوجيا :

إن البداية المطلقة هى خلق الله للكون وللإنسان . وإذا ركزنا على الإنسان ، رأينا صعيدين : أحدهما أنطولوجى والآخر وجودى .
وأما الصعيد الأنطولوجى فخاصّ بأن الله قد خلق الإنسان " على صورته كمثاله "

(تك ٢٦/١ — ٢٧) ، أى كائناً حراً ومحباً ، لأن الله هو الحرية المطلقة و " الله محبة "

(ايو ٨/٤ ، ١٦) .

وتتأسس حرية الإنسان على ما يسرده سفر التكوين :

" جبل الربّ الإله من الأرض جميع حيوانات الحقول وجميع طيور السماء وأتى بها الإنسان ليرى ما يسمّيها فكل ما سمّاه الإنسان من نفس حية فهو اسمه فأطلق الإنسان أسماء على جميع البهائم وطيور السماء ووحوش الحقل " (تك ١٩/٢ — ٢٠) .

فإنّ هذا الكلام الأركيولوجى هو بمثابة إقرار بحرية الإنسان الأنطولوجية^(٣).

ويضيف العهد الجديد أن هذا الإنسان الذى خلقه الله " على صورته كمثاله " هو " على مثال صورة ابنه ليكون هذا بكرًا لإخوة كثيرين " (روم ٨/٢٩) . وقد خلق الله الإنسان " نحو " المسيح (قول ١٦/١) " ومن أجله " (عب ٢/١٠) " وفيه " (يو ٤/١) . فقد خلق الآب جسد الإنسان " من عدم (ex nihilo) كما درج التعبير الفلسفى ، وأما روحه أو نفسه فـ " من ملء " (ex Plenitudine) الله — الكلمة (يو ١٦/١)^(٤) .

ولأن الله الكلمة أو الابن الأزلئ المتجسد بلغ به الحبُّ للبشر " إلى أقصى حدوده " (يو ١٣/١ ١٣/١٥) ، فالإنسان على صورته . بمعنى أنه خلق محبا مثله . هذا هو المستوى الأنطولوجى من الأركيولوجيا .

* وأما الصعيد الوجودى من الأركيولوجيا ، فيظهر فى أولى الوصايا التى أوصى بها الإنسان : " انموا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على أسماك البحر وطيور السماء وكل حيوان يدب على الأرض " (تك ١/٢٨ — ٣٠) .

فالله يؤسس — من خلال وصيته هذه — إمكانية التاريخ البشرى حيث للإنسان وجوديا القدرة على إخضاع الأرض والتسلط على الحيوانات ، " على صورة الله كمثاله " إذ إن الله هو القدير فأشرك الإنسان فى قدرته كما أشركه فى حريته ومحبته ، وجعله قادرا أن يسوس تاريخه بمعاملته مع البشر (انموا واكثروا واملأوا) ومع الطبيعة " أخضعوها " ومع الحيوان " تسلطوا على ... " فمن خلال هذا التعبير الأركيولوجى يتأسس فعلا التاريخ البشرى^(٥) ولقد رأى بعض الآباء — منهم أوريجانوس (حوالى ١٨٣/١٨٦ — ٢٥٤/٢٥٢) — أن مضمون "كمثال الله" يركّز على دور الإنسان وعمله ويمكننا القول : وتاريخه —

فى حين أن مضمون " على صورة الله " يركز على دور الله فى خلق الإنسان
هكذا .

* خلاصة القول أن الله يهب للإنسان — أنطولوجيا ووجودياً بمعايير
أركيولوجية — أن يصنع تاريخه ؛ والإنسان من جهته يتقبل من الله هذه الهبة
فيصنع تاريخه .

ثانياً — لاهوت تاريخ الخلاص :

يبدأ تاريخ الخلاص باختيار الله الشعب العبراني شعباً له فيكون هو إلههم . فقطع عهداً مع الآباء إبراهيم وإسحق ويعقوب ، ومنحهم شريعة إذ تدخل في تاريخهم فأخرجهم من أرض العبودية ، وذلك عن يد موسى ؛ كما أنه وعدهم وعدين أحدهما مكانيّ — وهو أرض الميعاد — والآخر زمانيّ — وهو ذريرة مثل نجوم السماء ورمال البحر — وكلا الوعدين يكونان لحمه حياة الإنسان الموقوف والمتزمن ، بل وأساس التاريخ البشري ، وذلك لأن الإنسان يعمل في هذه الأرض ويُنمي الجنس البشريّ ، فيصنع هكذا تاريخه .

ومع الأنبياء ، ذكر الله شعبه بعهده ، وتطورت الوعود ، فأصبحت وعوداً روحية مستقبلية: مجيء المسيح وانسكاب روح الله ، فتحقيق عهد جديد بين الله وشعبه^(١) .

هكذا يُمكن اعتبار العهد القديم تنبؤاً لحدث مستقبليّ ، لمجيء المنتظر ،

ألا وهو يسوع المسيح ، وتمهيداً للبشرى التي سيعملها (Preparatio

Evangelica) بحسب ما قاله يوسابيوس القيصرىّ (حوالى ٢٦٥ - ٣٤٠) وهو

أول مؤرخ كنسى . وقد تحدث آباء الكنيسة عامة عن " بذور (الله) الكلمة "

(Semini Verbi) أي عما في كلّ ديانة وكلّ ثقافة من حقيقة تُمهّد لمجيء

يسوع المسيح فى الجسد .

ولقد عبّر عن ذلك العالم الأنثروبولوجيّ اليسوعيّ Pierre Teilhard de

Chardin sj (١٨٨١ - ١٩٥٥) فوصف وصفا أدبيّاً ولاهوتياً رائعاً كيف أن

الكون كلّه وما قبل التاريخ والتاريخ كلّه بمثابة إعداد لمجيء يسوع المسيح .

" ليست المراحل الهائلة التي سبقت الميلاد فارغة من المسيح . ولكن قوة دفعه الجبارة قد تغلغت فيها فإن الهيجان الذى صاحب الحبل به قد حرك الكتل الكونية ، ووجه تيارات محيط طبقات الأرض الحيوى . وإن الإعداد لولادته قد عجل تطور الغريزة وظهور الذكر على وجه الأرض . فلا تعثر إذا تعثر الأغبياء بما فرض علينا المسبب من انتظار لا نهاية له . فكانت مجهودات الإنسان البدائي الخفية الهائلة ، والجمال المصرى الممتد زمنيا ، وانتظار إسرائيل القلق ، وعبير التصوفات الشرقية المقطر تدريجاً ، وحكمة اليونانيين الرفيعة كل الرفعة ، كانت جميعها ضرورية ليتمكن قضيب يسى والبشرية ، بل والزهرة ، من أن تثبت . فكانت جميع هذه الإعدادات ضرورية كونياً وحيوياً ، حتى يثبت المسيح قنميه على الساحة البشرية . وكان تفتح نفسه الناجح والخلق يحرك هذا العمل كله ، بقدر ما كانت هذه النفس مختارة لتحيا الكون . فلما ظهر المسيح بين نراعي مريم ، كان آتيا ليحمل هو العالم " .

فخلاصة القول أن للماضى كله — من أركيولوجيا وعهد قديم — اتجاهها واحداً ، ألا وهو مجئ الله — الكلمة فى الجسد وسط البشر ومثل البشر ، ودخوله فى تاريخهم .

* وتحققت وعود الله لشعبه بتجسد الله — الكلمة (يو ١/٤) من الروح القدس فى مريم العذراء ، وذلك " ولما تم الزمان " (غل ٤/٤) : ... البشارة التى سيق أن وعد (الله) بها على السنة أنبيائه فى الكتب المقدسة فى شأن ابنه الذى ولد من نسل داود بحسب الطبيعة البشرية ، وجعل ابن الله فى القدرة بحسب روح القداسة " (روم ١/٢ — ٤) .

هكذا ، فإن الله دخل تاريخ البشرية بجسد يشبه جسدنا " مثلنا في كل شيء ما عدا الخطيئة" (عب ١٥/٤) . غير أن " ذاك لم يعرف الخطيئة جعله الله خطيئة من أجلنا كيما نصير فيه برّ الله " (٢ قور ٥/٢١ ، راجع روم ٣/٨) . فشارك البشر حياتهم اليومية العادية مدة ثلاثين عاماً في الناصرة (لو ٢) وكان في حياته العلنية " يعلمهم كمن له سلطان " (مر ١/٢٢//) وكان يقوم بأفعال " قوّة " من شفاءات ومعجزات وإخراج شياطين ومغفرة الخطايا (مر ٤/٤١// ، ١/٢٧// ٢/١٠// ...) ، وشاركهم آلامهم وموتهم ، إلا أنه قام من بين الأموات ، فخلّصهم هكذا من سلطان الشريعة (غل ٥/٤) والخطيئة (قول ١/١٤) والموت (اقور ١٥/١) . (٢٦) . هكذا ، فلم يكتفِ الله بأنّه تعامل مع البشر مع علياء سمائه ، بل إن الله أصبح تاريخاً ، فخلّص التاريخ البشرى وقُدّسه .

وتعبيراً عن مشاركة يسوع المسيح وضع البشرية وتاريخها ، ابتدع إيريناوس المصطلح اللاهوتي Accomodatio (أي تكيف — تكيفاً) فقد تكيف يسوع الإله مع البشر في أن يسكن بينهم — يقول يوحنا : " نصب خيمته بيننا " (١٤/١) — ويحيّا حياتهم حتى " يتكيفوا " هم في أن يحملوا الروح والحياة مثله .

ثالثاً لاهوت التقليد الكنسى :

* وأما مرحلة تاريخ الخلاص الأخيرة ، فتكمن في أن يسوع المسيح ، إذ أُرِى " كل سلطان في السماء والأرض " متى (٢٨/٢٠) قد أُرسل كنيسته لتعلن "

البشارة إلى الخلق أجمعين " (مر ١٥/١٦) "وتعلن باسمه التوبة وغفران الخطايا الأمم (لو ٢٤/٤٧)" ، وفى سبيل ذلك ، نالت " قوة " الروح القدس الذى نزل عليها لتكون شاهدة " حتى أقاصي الأرض " (رسل ٨/١-١٣).

وإذ صعد يسوع المسيح عن يمين الآب " بمرأى " من رسله ، إذ كانت " عيونهم شاخصة إلى السماء وهو ذاهب " ، فإذا بملاكين يقولان لهم : " ما لكم قائمين تنظرون إلى السماء ؟ " (رسل ٩/١ — ١١) فعليهم أن يذهبوا إلى البشر ، لا أن ينظروا إلى السموات ، ليكملوا تاريخ الخلاص الذى بدأه يسوع المسيح . وقد نالوا الروح القدس ليقوموا بهذه الرسالة .

* هكذا فإن خلق الله الإنسان بغير إرادته ، ألا أنه يخلصه بإرادته — كما قال أوغسطينس مشركا إياه فى إعلان الخلاص وفى قبوله لمن يعلن به . فإله يفتح للإنسان مجالا لإشراكه فى الخلاص اشراكا حرا فعلا ، بنعمته تعالى وبمجهوده البشرى ، فى تكامل التعامل بين الله والإنسان ، بين نعمة الله وحرية الإنسان ، وقد سُمى الشرقيون هذا التكامل Sunergia — أي " تعاون عملى " — وكذلك Sumbiosos — أى " تلاحم حياتى " .

هكذا نجد هنا أيضا ، إمكانية التاريخ البشرى الذى ، وإن اعتمد على الله وخلصه ونعمته ، إلا أن الإنسان يحققه . ولا يختص بإعلان يسوع المسيح وبالأمر الروحية والدينية فحسب ، بل يتجاوز ذلك فى تحقيق التاريخ البشرى بدافع من الأمور الدينية التى تصبح حافزا للأمر غير الدينية ، لما هو دنيوى وزمنى وتاريخي ، كما سيوضح لنا لاحقا .

* ويسمى التاريخ الكنسى ذلك النمو والتطور " التقليد " وقد يوحى لنا

تلفظ العربى

' قلد — تقليدا " التردد والتكرار ، بيد إن الحقيقة عكس ذلك تماما . فقد يساعدنا تلفظ اللاتينى على تفهم معنى " التقليد " فان الفعل اللاتينى هو , Tradere والاسم

Traditio ، بمعنى

' سلم — تسليمًا . " وقد قال بولس فى رسالته الاولى الى كورنثس ، وهى من أوائل ما كُتِبَ من كُتُبِ العهد الجديد : " سلمت اليكم ... ما تسلمته انا ايضا " (٢٣/١١ ، ٣/١٥) فالتقليد هو عملية تسلم وتسليم من السلف وتسليم الى الخلف وعلى هذه العملية ، يضاف كل جيل طابعه الخاص بروح مزدوجة ، بالأمانة لما مضى وبالإبداع فى الحاضر . فبين وجهى عملية التسلم والتسليم ثمة مكانة خاصة لحرية الإنسان الذى لا يكرر ويقلد — واللفظ العربى غير موفق إذا — بل يبدع فى أمانته لـ " وديعة الإيمان " الثابتة غير المتغيرة ويكون أميناً فى إبداعه طبقاً لاهتمامات وقضايا وتساؤلات وإشكاليات جيله ، ولعقلية وثقافة وفكر وفلسفة عصره .

وهو الروح القدس الذى يجعل الجمع بين الامانة / الإبداع أمراً ممكناً فهو ، انسان فى قلوب المؤمنين ، يعمل فيهم فيلهمهم الإبداع الصائب الأمين لوديعة الإيمان . أما الكنيسة — وهو الوجه المرئى لعمل الروح القدس الباطنى غير المرئى فى المؤمنين — فهى تقر إن كان الإبداع أميناً لوديعة الإيمان والحاضر — فى تعبيره — أميناً للماضى .

هذا هو الماضى الذى يرتبط به التاريخ البشرى وهو ماض ثابت وحى فى أن واحد فيفتح المجال لحرية الإنسان التى تصنع التاريخ فى عملية أمانة للماضى وإبداع فى الحاضر .

* أما الوعى التاريخى فهو لهذا الماضى (وللمستقبل الذى سنتحدث عنه أيضا) فهو وعى " ما قبل الموضوعى (Pré - réflexif) اذا استمنا بالفيلسوف الفينومينولوجى الفرنسى Maurice Merleau - Ponty أو وعى " صامت " إذا ستعرنا عبارة اللاهوتى الروسى Florovsky متحدثا عن " التقليد الصامت " ومعنى ذلك ، أن كل إنسان يحمل فى صميم كيانه وعمق قلبه ، لا ماضيه الشخصى فحسب ، بل أيضا ماضى وطنه ، وثقافته ودينه ... وهذا الوعى يصعب إدراكه ووصفه والتعبير عنه لأنه دفين فى الإنسان فيشكله فى أعماقه على صعيد أعماق من الفكر أو من الأيدلوجيا * - وهى مزيج من الفكر والعمل - بل ويشكل هذا الوعى الشعب نفسه وثقافته وحضارته وانجازاته التاريخية .

٢ - لاهوت التاريخ والمستقبل :

يتضمن الوعي التاريخي المستقبل أيضا . ويستخدم لاهوت التاريخ لفظين

كتابين يعبران عن وجهى المستقبل الواحد :

١ — *Parousia ، أى مجيء يسوع المسيح مجيئا ثانيا مجيدا .

٢ . Eschatologia أى نهاية الزمن والتاريخ ، أو ملكوت الآب .

٣ . فأما المفهوم الأول فيتمحور حول شخص يسوع المسيح ، وأما الثانى فحول

الله الآب . وكلاهما يحققها الروح القدس فى الكنسية ومعها من خلال تاريخها

وتاريخ البشرية قاطبة ، لبلوغ " الغاية " (Teleologia) المنشودة أى المجيء

الثانى والملكوت .

أولا — المجيء الثانى المجيد

لقد أعلن يسوع قبل انتقاله من هذا العالم إلى الآب (يو ١٣/١) انه

سيعود :

" سأعود فأراكم فتفرح قلوبكم " (يو ١٦/٢٢) وقد عاشت الكنيسة الناشئة فى

تلطف على عودته هذا . وختم الوحي كامن فى هذا النداء :

" يقول الروح القدس والعروس : " تعال " .

من سمع فليقل : " تعال "

فجيب الرب يسوع :

" أجل ، إني آت على عجل " .

ويختتم يوحنا الرائي كتابة على النحو التالى :

" آمين . تعال ، أيها الرب يسوع " (رؤ ٢٢/١٧ — ٢٠) .

فختام الوحي المكتوب دعوة من الروح والعروس إلى الرب يسوع ليعود . وأما بداية الوحي المكتوب — ويرقى إلى حوالى السنوات ٥٠-٥٥ فتصور هكذا المجيء الثانى :

" كما يموت جميع الناس فى آدم ، فكذلك سيحيون جميعا فى المسيح ، كل واحد وربته . فالبكر أولا وهو المسيح ، ثم الذين يكونون خاصة المسيح عند مجيئه . ثم يكون المنتهى حين يسلم الملك الى الله الآب بعد أن يكون قد أباد كل رئاسة وسلطان وقوة . فلا بد له أن يملك حتى يجعل (الآب) جميع أعدائه قدمى (المسيح) . واخر عدو يبيده هو الموت لأنه

" اخضع كل شئ تحت قدميه ... " (اقور ١٥/٢٢ — ٢٨).

وقد أولى بولس أهمية لهذا الحدث المستقبلى عندما تحدث عن (ملء) Plérôma * ذاك الذى يمتلئ تماما بجميع الناس (اف ١/٢٣) ، وعن بلوغ " القامة التى توافق ملء المسيح " (اف ٤/١٣) . فالمجيء الثانى هو ملء قامة المسيح الذى يجمع ويدمج فى جسده البشرية قاطبة . ولقد عبر بولس عن ذلك بالفعل اليونانى Anaképhalaio ، أى أن "سر مشيئة الآب " (١/٩ — ١٠) أى مشيئته المطلقة — هى أن المسيح " يجمع ويدمج " * ويرجع ويرأس ويلخص ويركز ويختصر ... " كل شئ " (Panta) فى شخصه فيصبح باللفظ الاتينى Recapitulatio ومنه اللفظ الانجليزى والفرنسى (Recapitulation) أى يدمج فى شخصه كل شئ

ولقد سمى . Pierre Teilhard de Chardin ملء المسيح هذا - Christ Omega — المسيح — اوميغا — مستعينا بتعايير سفر الرؤيا حيث المسيح هو الألف والياء (ألفا واوميغا) الاول والاخرة والبداية والنهاية " (١٣/٢٢) .

فللتاريخ البشرى اتجاه نحو النهاية ، كما أن له اتجاهها منذ البداية ، وهو شخص يسوع المسيح الذى يفض " الخم السابع " (رؤ ١/٨) ، أي يختتم تاريخ البشرية .

ثانيا الملكوت :

إذا نظرنا إلى نهاية الازمنة (Eschatologia) فى علاقتها بالله الآب ، وجدنا عدة تعابير كتابية " ملكوت السماوات " او " ملكوت الله (الأنجيل الإزائية) " الحياة الأبدية

(إنجيل يوحنا) " اليوم " بولس ، يوم الله (٢ بط ١٢/٣) ، قيامه الاموات (رسل ، بولس) ... ويسميه التقليد الشرقى : اليوم الثامن ، أو يوم القيامة النهائية ، أو يوم التجلى ...

ويصفه بولس على النحو التالى :

متى أخضع (للمسيح) كل شئ فحينئذ يخضع الابن نفسه لذلك الذى اخضع له كل شئ ليكون الله كل شئ فى كل شئ " (١ قور ١٥/٢٨) .

وما " المجئ الثانى " و " الملكوت " فى نهاية الأمر سوى حدث واحد ذي وجهين : مجيء المسيح وملكوت الاب . لقد قال الفيلسوف الوجودى المسيحى

:Emmanuel Mounier

ثمة تاريخ واحد وهو تاريخ البشرية فى سيرها نحو ملكوت الله . وهو " تاريخ مقدس "

ولقد برع اللاهوتيون الروس فى وصف الاسكاتولوجيا هذه فيقول Nicolas

: Berdiaeff

إن اللاهوت الروسى : " يطرح دائما قضية النهاية لا الوسط . فالوعى الروسى وعى اسكتولوجى ."

ويعتبر Paul Evdokimov ان الكتاب المقدس كله .

" يعبر عن انتظار ما يجب ان يتم ، وان هذا الانتظار هو الذى يجبر الانسان من الزمن (باليونانية : Chronos) " . وبالفعل ، فإن عقارب الساعة لا تؤدى إلى أي مكان . فبدون الملكوت ، ان التقدم التاريخى هو بدون هدف ولا معنى " ، او بتعبيرنا — بدون تليولوجيا * . ونضيف ان الوعى الروسى اركيولوجى واستكولوجى اكثر منه تاريخى على خلاف اللاهوت الغربى الذى تبحر فى وعيه التاريخى وفى صنع الحرية الانسانية للتاريخ البشرى ، منذ ان وصف اوغسطينس " المدينيتين " ، كما سنراه لاحقا . فحسبنا الان ان نكون قد اوضحنا اتجاه التاريخ البشرى — او الحاضر — وهو بين الالف والياء بين البداية والنهاية بين الاركيولوجيا والاسكتولوجيا والمرتبط بينهما ارتباطا وثيقا عضويا يضافى عليه معناه / غايته .

المقاربة الثانية :

معنى التاريخ البشرى

نقصد بـ " معنى " التاريخ حقيقتين متكاملتين قد المحنا إليهما أنفسا ،
وندقق النظر فيهما الآن ، ألا وهما أن الله هو سيد التاريخ البشرى ، بسيادة يسوع
الفا ووميغا وان الانسان هو صانع تاريخه بحريته .
فبقدر ما اتضح لنا سيادة الله على تاريخ البشر ، فى اتجاه من الاركيولوجيا *
الى الاسكتولوجيا والبروسيا * ، يتبقى لنا ان نوضح صنع الانسان تاريخه .
بموجب حريته ، وعلاقة صنع الانسان تاريخه هذا بالله بموجب سيادته تعالى
على الانسان وعلى تاريخه . هذا ما اطلقنا عليه تسمية Teleologia * اى "
غاية " التاريخ ومعناه .

٣- حرية الانسان صانعه التاريخ :

نبغى اظهار مكانة حرية الانسان فى صنع التاريخ ،لنستشف من خلال ذلك ملامح قيمة التاريخ فاما الجانب الاول فهو بعد انطولوجى * - اى كيانى - واما الجانب الثانى فهو بعد وجودى . *

أولاً - حرية الانسان أنطولوجياً :

تستقى حرية الانسان أساسها الأنطولوجي من ذون الله قد خلقه " على صورته كمثاله " أي كائننا حراً قادراً على صنع تاريخه ، إذ أوصاه الله أن ينمو ويتكاثر ،وان يخضع ويتسلط على الخليقة ، وأن يسمى بالحيوانات ...

غير أن ما ينبغي اعتباره ، هو ان هذه الحرية هبة من الله الى الانسان المخلوق . وبالتالي فإنها حرية نهائية (Liberté finie) ، ولا غير - نهائية (infinie) مثل حرية الله الذى يحتفظ هكذا بالسيادة على التاريخ كما أنها حرية مشروطة (Liberte conditionnee) ، أى متأثرة بالزمان والمكان ، وبالقوانين الطبيعية ، وبالأحداث التاريخية الماضية ، وبالظروف الحضارية والثقافية والفلسفية ، وبالأوضاع الاجتماعية ، وبالعوامل النفسية، فليست بالتالي حرية مطلقة مثل حرية الله ، بل حرية نسبية لكون الانسان " كائناً - فى - العالم " (Sein - im Welt) كما أظهرته الوجودية مع هيدغر ومن بعده ثم إن صنع الحرية للتاريخ البشرى بمثابة " رسالة إلهية " (Tchaadev ومن بعده Soloviev) .

ويتسم التاريخ البشرى بهذه الحدود التى تتميز بها حرية الانسان . ويعود ذلك إلى أن

" الانسان كائن تاريخي إلى أقصى درجة " . فإنه يجد نفسه في الواقع التاريخي . وأن الواقع التاريخي عينه يجد نفسه فيه (Nicolas Berdiaeff) .

فئة تفاعل بين الانسان وتاريخه ، فالإنسان تاريخي والتاريخ إنساني .

وإذ اعتبر Paul Evdokimov وان التاريخ ليس بـ " حتمية " (Fatalisme) كما تصوره اليونانيون ، " الا ان عناصر غير تاريخية تؤثر فيه " ويشرح ذلك بقوله :

" ليس التاريخ مستقلاً بل يسبقه تاريخ فردوسى (هذا ما سميناه " الاركيولوجيا ") ويختمه تاريخ ملكوتى (وهذا ما سميناه " البروسيا " و "الاسكتولوجيا ") فالاول ، اذ يعبر التاريخ ، يكتمل فى الثانى . واما القوى فوق التاريخية ، فهي تحيا فى التاريخ وتعمل فيه وتؤثر فيه " فستان ما بين الحتمية اليونانية حيث الآلهة يتحكمون فى مصير البشر ويسلبون لهم حريتهم ، وبين الإله الذى يحترم حرية الإنسان وقد خلقه حرّاً ، ويدعوه الى " رسالة " صنع تاريخه .

ولكن فستان أيضاً ما بين النظرة المسيحية هذه و " الإيديولوجيا الإنسانية النزعة " (Ideologie Humaniste) * فى سعيها الإيديولوجى * الدؤوب وراء " التقدم المستمر " فىرى Paul Evdokimov أن التقدم المزموع هذا فى فلسفة التاريخ العلمانية ، إنما يتناسى الماضى البشرى المطلق — أى الأركيولوجيا — لصالح مستقبل مطلق — كمحرك للحاضر ودافع للتاريخ — اسمه السعادة والعدالة الاجتماعية والمساواة الاقتصادية ... ، فيصير الانسان وحده " باتى مصيره " من دون مرجعية الله سيد التاريخ — كما رأينا — ولا سيما اتجاه الإسكتولوجيا .

هكذا ، فقد مَوَقَّفْنَا التاريخ البشرى فى لاهوت التاريخ بين " الحتمية اليونانية "

و " الإيديولوجيا الإنسانية النزعة " ، مقرين بسيادة الله على التاريخ البشرى / صنع حرية الإنسان له ، معترفين بحرية الإنسان حرية موهوبة ، نهائية ،

نسبية، مشروطة ، رابطتين التاريخ بالأركيولوجيا والإستكولوجيا وفى ذلك تكمن التليولوجيا ، أى معنى التاريخ وغايته .

ثانياً : وضع التاريخ وجودياً

إن للتاريخ البشري قيمته الذاتية ، وإن ارتبط بـ " ما وراء التاريخ " * . وهذا ما نريد إظهاره على أصعدة مختلفة :

١ - قيمة الأحداث التاريخية :

إن الله باحترامه حرية الإنسان ، لا يستخف بالأحداث التاريخية التي يصنعها الإنسان ، بل يعترف بكتافتها وجديتها وقيمتها الذاتية .

وقد يظن بعضهم إن الكتب النبوية والرؤيوية لا تولى أهمية واضحة وقيمة نوعية للتاريخ وللأحداث التاريخية ، ولا سيما عندما تتادي باقتراب " الساعة " ساعة انتهاء العالم والتاريخ . ولكن العيب يعود إلى بعض الأحاديث اللاهوتية والروحية إلى أولت الكتب على هذا المنوال ، على غير ما كانت تقصده .

فان قال بولس : " الزمن يتقاصر " و " إن العالم فى زوال " (١ قور ٢٩/٧ —

٣١) ، فلا يقصد أن لا قيمة للزمن والعالم ، بل إن قيامة المسيح قد أضفت معنى (Telos) جديداً على الأمور الزمنية والعالمية ، وأدخلتها فى اتجاه مجيئه الثانى .

وعندما قال كاتب الرسالة إلى العبرانيين ، مستشهداً بأشعيا النبى : قليلا من الوقت فيأتى الآتى ولا يبطل " (اش ٢٠/٢٦) فإنه لم يبع التاريخ ، بل الحدث على السهر والإيمان (عب ٣٧/١٠ — ٣٩) .

وإن صرح بطرس : " اقتربت نهاية كل شيء " فقد أضاف : " كونوا عتلاء قنوعين ، لكي تقيموا الصلاة " (١ بط ٤/٧) ، فإن كلامه من باب التشجيع الأخلاقي ولا على الصعيد الأنطولوجي . بل إنه يحث المؤمنين على " قداسة السيرة والتقوى ، تنتظرون وتستعجلون مجئ يوم الله " (٢ بط ٣/١١ — ١٢) ، مُحَمَّلًا هكذا المؤمنين مسؤولية استعجال المجيء الثانى .

وإن أقر يوحنا : " إنها الساعة الأخيرة " ففى سبيل مُحاربة " المسيح الدجال " بل " الكثير من المُسحاء والدجالين " ، خاتماً بقوله : " من ذلك نعرف أن هذه الساعة هى الأخيرة " (١ يو ٢/١٨) .

فحديث يوحنا لاهوتى مسيحانى ، لا تاريخى .

إن هذه الأمثلة المختلفة تقريبا من عقلية الجيل المسيحى الأول وقد كان يتصور أن مجيء المسيح قريب عاجل ، فلذلك اتخذ بعضهم موقفا سلبيا تجاه التاريخ ، فقاومهم بولس بشدة وحزم : " إذا كان أحد لا يريد العمل ، فلا يأكل " (١ تس ١٠/٣) .

٢- قيمة التاريخ الاجتماعية :

تحدث أوغسطينس — اعتماداً منه على أن الإنسان " حيوان

سياسى "

(باليونانية Zoon Politikon) .

- " عن الحياة الجماعية " (باللاتينية Socialis vita) . فالنظرة إلى التاريخ البشرى نظرة تُدمج البُعد الاجتماعى والسياسى ، ونضيف : الثقافى والدينى والاقتصادى والمهنى، ذلك لأن التاريخ يشمل جميع الأبعاد والمستويات البشرية . وقد سبق لبطرس أن قال للمؤمنين أنهم " جماعة " و " حجارة حية "

مؤكداً هكذا البعد الجماعي الذي يُكوّن " البيت الروحي " (١ - بط ٥/٢). فرغم البُعد الفردي الذي يركز عليه تاريخ الخلاص ، إلا أن التاريخ هذا لا يتعلق بأفراد منفردين منعزلين بعضهم عن بعض ، بل بأفراد مندمجين في شعب وجماعة ، اسمها " الشعب المختار " في العهد القديم " الكنيسة " في العهد الجديد .

هكذا ، فإن النظرة الصائبة تنظر نظرة جدلية إلى الشخص / الجماعة ، إلى الفرد / المجتمع ، معتبرة الشخص " كوناً مُصغراً " (Microcosmos) في الكون الكبير (Marocosmos) ، دامجة إياه ، لا في المجتمع فحسب ، بل في الكون كله ، متجنبة كل نظرة فردانية قد وقعت فيها بعض الأحاديث الروحية واللاهوتية.

٣. قيمة التاريخ الواقعية :

إن كانت بعض الأحاديث الدينية قد وقعت في فخ الفردانية ، فقد وقع بعضها في فخ المثالية أيضاً ، متأثرة بعالم المثل الأفلاطوني والأفلاطوني الحديث ، حيث عالم المثل هو الأصل والنموذج ، وما التاريخ البشري سوى انعكاس وصورة له ، وما الأحداث التاريخية سوى ترجمة بشرية لإرادة الآلهة وتمهيدا لما بعد التاريخ ، فكأنى بالآلهة تُسير التاريخ بحسب هواها ، وتحرك البشر كأداة في سبيل تحقيق مشيئتها .

إن بعض تعابير آباء الكنيسة الأول متأثرة بهذا العالم ، قالبا لا مضمونا . فـلقد قال أكليمندس الإسكندري (حوالي ١٥٠ - ما بين ٢١١ و ٢١٦) على سبيل المثال : كنيسة الأرض هي صورة الكنيسة السماوية . ولقد اعتبر أوغسطينس (٣٥٤ - ٤٣٠) أن " المدينة الأرضية " (Civitas Terrena) تحاول تحقيق

" مدينة الله (Civitas Dei) فى الأرض . وللمؤرخ الكنسى يوسابيوس القيصرى تعابير مماثلة .

وإن لغة اللاهوتيين الروس — وهم ورثة آباء الكنيسة الأفلاطونيين — لا تخلو هي الأخرى من مثل هذه التعابير . فلقد قال Soloviev : " إن التاريخ هو فكر الله فى البشرية " . ولقد أضاف Briantchaninov إنه على الإنسان أن يقبل ألا يفهم كل شيء .

وأما Nicolas Berdiaeff فقد اعتبر أن عالمنا " انعكاس للحقائق الروحية " وأن " التاريخ السماوى " يقرر " التاريخ البشرى " هذا التاريخ الذى يتحدد فى " الحياة الروحية " ، أى — تأثرا منه بهيغل فى فهمه لـ "الروح" — " حياة الروح " .

وفى سياق هذه النظرة " المثالية " تتسم بعض الأحاديث الدينية بما يمكننا اعتباره تفاؤلا ساذجا ، حيث " يؤول كل شئ إلى خير الذين يحبون الله " (روم ٨/٢٨ — ٢٩) وحيث الله " سيمسح كل دمة من عيونهم . وللموت لن يبقى وجود بعد الآن ، ولا للحزن ولا للصراخ ولا للألم لن يبقى وجود بعد الآن ، لأن العالم القديم قد زال " (رؤ ٢١/٤ ، اعتمادا على اش ٨/٢٥) .

الحق يقال إن مثل هذه النصوص الكتابية لا تلغى إطلاقا مسؤولية الإنسان فى صنع تاريخه . فإن وعود الله تتحقق مع مُعاونة الإنسان فى تاريخه (راجع ٢ قور ١/٦) ولا تلغى " آلام المخاض " (يو ١٦/٢١ ، روم ٨/٢٢) ، على خلاف ما تدّعيه "الألفية" (٧) . ولقد صرح أوغسطينس أن الإسكتولوجيا تتحقق من خلال شدائد التاريخ البشرى وتاريخه وتقلباته ومصائبه وعذاباتِه ، من النشل والضرورة فالنظرة المسيحية نظرة رجاء — وهو الاسم المسيحي للتفاؤل والأمل

الخلاص الإسكتولوجى (راجع روم ٢٤/٨ - ٢٥ ، عب ٨/٢ ، ١ يو ٢/٣) ،
حيث للإنسان دور فعال فيعمل بجميع طاقاته فى خضم التاريخ البشرى فى سبيل
السما الجديدة والأرض الجديدة " (رؤ ٢١ / ١) ، وفى سبيل أن " يأتى ملكوت
(الآب) " (متى ١١/٦) .

فالتاريخ البشرى يتكون من الخير والشر ، من الزرع الطيب والزوان (متى
٢٤/١٣ - ٣٠) ، من السمك الطيب والخبث (متى ٤٧/١٣ - ٥٠) من القمح
والتب (متى ١٢/٣) . وفى إشكالية أوغسطينس ، فإن " المدينة السماوية " - حيث
" حُبُّ الله حتى احتقار الذات " -

و "المدينة الأرضية" - حيث " حُبُّ الذات حتى احتقار الله " - متشابكتان
وممتزجتان " حتى نهاية التاريخ . وذلك على نقيض النظرة المانوية وهى تفصل
بين الخير والشر كمبدأين أنطولوجيين يُكوّنان الإنسان فى حين أن المسيحية تقر
بمبدء أنطولوجى واحد كله خير - " على صورة الله كمثاله " - وبمبدأين
وجوديين - لا أنطولوجيين - هما الخير والشر ، فالإنسان أنطولوجيا خير
، ووجوديا مزيج من الخير والشر ، هما بالفعل متشابكتان ممتزجان تاريخيا ،
مما يسبب فى الانسان " شرخة وجودية " (" Paul Ricoeur " existentelle
(faillie) .

فشتان ما بين "التفاؤل الساذج" السالف ذكره و " التفاؤل المأسوي " (H - I.
Marrou) الذي يمزج بين عنصري الخير والشر فى التاريخ البشرى ، بل وفى
حياة الإنسان صانع تاريخه .

إن الإقرار بقيمة التاريخ وبخصوصيته وكيانه النوعي — كما حاولنا أن نحلله —
إقرار بحرية الإنسان في صنع تاريخه، وكلنا يعلم كيف أن التاريخ مليء
بالمفاجآت وبالأحداث غير المتوقعة وبالقفزات، وهى وليدة هذه الحرية .

٤- جدلية التاريخ ما وراء التاريخ :

نبغى أن نلقى نظرة أخيرة شاملة على التاريخ البشري فى تحرينا عن معناه التلويولوجى ، * مستعينين بكل ما توصلنا إليه فى خطواتنا السابقة فى الأركيولوجيا * والبروسيا والإسكتولوجيا * والتلويولوجيا فهذه النظرة التى تجمع وتدمج كل ما سبق من تحليل يسميها هيغل *Aufhebung*.

أولاً- من الإقرار بقيمة التاريخ إلى الاعتراف بقصوره

إن الإقرار بقيمة التاريخ السالف تحليله يستدعى جدليا الاعتراف بحدوده بل وبقصوره . ويظهر هذا القصور على صعيدين : أحدهما عملي ، وثانيهما وجودي .

١. القصور العملي :

حاولت جميع الحضارات والشعوب والفلسفات البشرية تشييد " المدينة الفاضلة " حيث تتأغم العلاقات البشرية فى مجتمع مثالي ، أو بتعبير أوغسطينس - تحقيق " مدينة الله " فى " المدينة الأرضية " .

إلا أنها باءت جميعها بالفشل الذريع . فتحقيقها هو السماء عينه ، أى البروسيا والإسكتولوجيا . ولذلك سميت جميع المحاولات فى تحقيقها *Outopia* * - أى " لا - مكان " بمعنى أنه لا يوجد أى مكان حيث المجتمع المثالي هذا ، وقد أصبح اللفظ " يوتوبيا " (*Utopia*) * مرادفا للخيال والوهم والحلم والمثال غير الواقعي .

٢- القصور الوجودي :

إلا أن قصورا أعمق يعترى الطريق فيقف التاريخ عاجزا كل العجز أمامه ، ألا وهو الموت . فلقد حاولت " الإيديولوجيات الإنسانية الفزعنة " (*Ideologies*)

(humanistes) " * أن تجد مخرجا ، فادعت أن الإنسان على يقين أن التاريخ يستمر بالأجيال اللاحقة . لذلك وصف الفيلسوف الألماني Heidegger ، ومن بعده سائر الوجوديين الملحدين ، الإنسان على أنه " كائن - نحو - الموت " (Sein - zum - Tode).

ولا عجب بالتالي إن اتسم التاريخ بسمه صانعه ، فجميع الحضارات وُلدت ونمت ثم سقطت ، وإن استمر منها شيء في الحضارة الإنسانية ، غير أنها " صنْع - نحو - الموت " على صورة صانعها .

ثانياً - من الاعتراف بقصور التاريخ إلى الإقرار بما وراء التاريخ

للخروج من مأزق قصور التاريخ قصورا مزدوجا - عمليا ووجوديا -

ثمة إمكانية الاستعانة بـ " ما وراء التاريخ " (Méta - histoire) * :

١- فإذا انطلقنا من مأزق استحالة تحقيق " المدينة الفاضلة " ، فيجب رغم ذلك السعي الدؤوب وراء تحقيق ما يُمكن من " البرِّ (Justitia) على حد قول أوغسطينس ، ومن " حضارة المحبة " على حد ما ناشد به البابا بولس السادس منظمة الأمم المتحدة سنة ١٩٦٥ . ولذلك كان يسوع قد ادخل في الصلاة الربّية هذا الرجاء : " ليأت ملكوتك " (لو ١١/٢) ، ملكوت " التطويبات " (متى ٥/٣ - ١١) في الأرض .

٢- وإذا انطلقنا من مأزق " الكائن - نحو - الموت " وجدنا أوغسطينس متأثرا بلا ريب ببولس الرسول - يرى - قبل سائر الوجوديين - إن الموت أقسى بل وأقصى مظهر من مظاهر الشر في العالم وفي التاريخ البشرى . غير أن الموت هو الطريق الذي يؤدي إلى الحياة ، وإن الانسان بالتالي " كائن - نحو

— الحياة " إذا استخدمنا تعابير المعاصرة — تلك الحياة التي هي عودة الإنسان إلى الخير الأنطولوجي الأركيولوجي ، والتي يسميها يوحنا الإنجيلي " الحياة الأبدية" . وبتعبيرنا ، نقول أن الإنسان "كائن — نحو — الإسكتولوجيا " فليست غاية (Teleologia) * حياته الأرضية إن يُشيد الحضارات والممالك فحسب ، ولا أن يسعى وراء التقدم والرخاء فحسب ، بل فلأنه مملوء بروح الله ، فرسالته مزيج من الزمنى والابدئى ، من المادى والروحى ، من المرئى وغير المرئى ، من المحسوس واللا محسوس . وإن رسالته أن يُشيد " مدينة الله " فى " المدينة الأرضية " المهددة بأن تتجاهل الله فتتبنى بدونه . ولأن صانع التاريخ هو هذا المزيج ، فيتسم التاريخ نفسه بصفة صانعه ، فتضفى التلولوجيا معناها على التاريخ فتصبح الإسكتولوجيا " مُبرّر الزمن ومقياسه " (H - I.Marrou) ويتجاوز التاريخ ذاته نحو " ما وراء التاريخ " .

هكذا يكتمل التاريخ فى الإسكتولوجيا (Khomiakov , Berdiaeff) .

وإن تجسد ابن الله هو بمثابة بداية تحقيق الإسكتولوجيا : " لما تحقق ميلء الزمان (To Pleroma tou chronou) ، أرسل الله ابنه مولوداً لامرأة (غل ٤/٤) (Tchaadev , Soloviev). فأضفى هكذا الله معنى على التاريخ ، وأصبح صنع التاريخ رسالة من الله إلى الإنسان ، وبوادرها فى الأركيولوجيا عندما كلف الله الإنسان بالنمو وإخضاع الأرض والتسلط على الحيوان ، بل وتسمية الحيوانات .

٣. ويشبه أوغسطينس التاريخ بـ " غناء جميل " (Puicherimum carmen) ينبغي الاستماع إليه حتى نهايته لفهمه وتذوقه . وهذا هو الفرق بين تسلسل الأحداث التاريخي " (Chronogie) والتاريخ التجريبي (Histoire empirique) وبين " كلية التاريخ " (Totallite de Histoire) حيث معنى التاريخ

والأحداث التاريخية لا يدرك إلا بانتهاء التاريخ نفسه ، عندما يُخضع الآب كل شئ للابن ، ويخضع الابن للأب ، فيصبح " الله كل شيء في كل شيء (اقول شئ للابن ، ٢٠/١٥ - ٢٨) .

فأما الأحداث التاريخية والتاريخ التجريبي ، فهي زمن الاعتراف بأن " معرفتنا ناقصة و رؤيتنا ملتبسة " ، ما دمنا في داخل التاريخ . ولكن " متى جاء الكامل to teleion أى "الغاية " ، " المعنى المطلق " زال الناقص ... فنحن اليوم نرى في مرآة رؤية ملتبسة ، وإما في ذلك اليوم فتكون رؤيتنا وجهها لوجه " (اقول ١٣/٩/١٢) . فما وراء التاريخ يعد ملء غاية/ معنى التاريخ ، وكمال تحقيق التليوجيا . أو بعبارة أخرى ، يكتمل معنى التاريخ في الإسكتولوجيا .

فما وراء التاريخ يشرح التاريخ . فإن عجزنا عن فهم ملء معنى

أحداث التاريخ

(" إلى أين " ؟ " لماذا " ؟ ولا " كيف " ؟) ، وإن كانت قوانين التاريخ — من صُدف وحتميات — تُحد من حرية الإنسان إلا أن ما وراء التاريخ يشرحها (N.Losski) ويوضح غايتها / معناها . فإن إدراكنا لمعنى أحداث التاريخ جزئي غير إجمالي وغير شامل ، فلن يتجلى لنا ملء (Pleroma) غايتها / معناها إلا في نهاية التاريخ ، عندما يصبح المسيح والآب كل شئ في كل شئ " ولا سيما عندما يتحقق " ملء قامة المسيح " (اف ١٣/٤) ، أى المسيح " جامعا دامجا " * في شخصه كل شئ (بولس : Anakephale: — إيريناوس Recapitulatio — اوغسطينس Christus totus) ولا سيما التاريخ البشرى .

ولقد تلمل اللاهوت الشرقى فى مشهد تجلى يسوع على الجبل (لو ٢٨/٩ - ٣٦//) فى حضور ايليا وموسى - اى العهد القديم - وبمراى من تلاميذه الثلاثة - اى العهد الجديد - وممتحدثا عن " فصحه" من موت وقيامه - اى التليولو جيا - ولقد اعتبر هذا المشهد استباقا لتجلى العالم ، وهو فى ذلك امين لنبووة بولس : الخليفة تنتظر بفارغ الصبر تجلى ابناء الله .. لم تقطع الرجاء لانها هى ايضا ستحرر من عبودية الفساد لتشارك ابناء الله فى حريتهم ومجدهم (روم ٨/١٨ - ٢٥) فيمكننا اعتبار التاريخ ينتظر بفارغ الصبر تجلية ليشترك صانعه الانسان فى حريته ومجده. سيتجلى التاريخ فى الاسكتولوجيا تجلى " المسيح الكلى " هذه هى السماء الجديدة والارض الجديدة " التى يصورها سفر الرؤيا ، وقد زال منها جميع اللون الشر لينتصر الخير الاركيولوجى الانطولوجى ، ولكن الخير الذى امتزج به الشر حينئذ زال بفضل تاريخ خلاص الله للانسان وتعاون الانسان معه فى التاريخ ، سواء اوعى الانسان ذلك ام لم يعه فى التاريخ هذه هى " سمة الزمن الاسكتولوجية الذى يعيشه تاريخنا " (H-I.Marrou).

ثالثا : من الاقرار بما وراء التاريخ الى الاقرار بتحقيقه فى التاريخ

وقد يظن بعضهم اننا وقعنا فى فخ المثالية " علم المثل التى نقضناها سافا ، مثالية " المدينة الفاضلة على صورة المدينة السماوية - وهى فى الا - مكان (Outopia) - ، فعندنا اليها ثانية بدون قصد ولا دراية وفى نهاية المطاف نكون قد هربنا من واقع التاريخ وروحناه روحنة خيالية وهمية تفرغ التاريخ من جديته وكثافته وحقيقته

فتحاشيا لذلك ، توجب علينا الاقرار الجدلى بان ما وراء التاريخ لا يتحقق الا فى التاريخ وبواسطته ومن خلاله . وهذا مام نبغى توضحيه الان :

ففى الانجيل مشهد رائع لا يقل روعة عن مشهد التجلى ، الا وهو مشهد الدينوية العظمى (متى ٢٥/٣١ - ٤٦) ، وقد الح فيه اللاهوت الغربى . فما تتضمنه الدينوية وبما تتعلق ؟ ام كلمة " ابن الانسان فى مجده تواكبه جميع الملائكة ، يجلس على عرش مجده " واضحة جلية : سيدين جميع الامم " على محبتهم فى تاريخهم على " حضارة المحبة " التى شيدها او لم يشيدها فى تاريخهم :

" جعت فأطعمتمونى / فما أطعمتمونى

وعطشت فسقيتمونى / فما سقيتمونى

وكننت عريبا فأويتمونى / فما اويتمونى

وعريانا فكسوتمونى / فما كسوتمونى

ومريضا فعدتمونى / فما كسوتمونى

ومريضا فعدتمونى وسجينا فجئتم الى / فما زرتمونى

كلما صنعتم شيئا من ذلك / لم تصنعوا ذلك

لواحد من اخواتى هؤلاء الصغار

فى قد صنعتموه / لم تصنعوه ."

فالحق يقال إن " ملء قامه المسيح " او المسيح الكلى " فى مجيئه الثانى المجيد ، لا يتحقق فى التاريخ بفضائله وشواهبه ، يكون " الابن الانسان فى مجده " حاضرا فى " اخواته الصغار بل ويرتبط مصيره المجيد بخدمة البشر البشر او عدم خدمتهم للصغار ، اولئك الذين لا صوت لهم ولا مدافع ("بى " قد صنعتموه) .

فى ما يفيد هذا المشهد الاسكتولوجى موضوعنا ؟ يقول اوغسطينس ان كان شكل (figura) هذا العالم يزول (praeeterit) والا ان جوهره (non natura) لن يزول . فكته التاريخ لن يزول ، بل سيتجلى ويتحول الى " ملته " كما اسلفنا تبينه

فان جميع الافعال البشرية ، وان جميع الاحداث التاريخية لن يزول " جوهرها " فكل فعل وكل حدث كل امل وكل الم ، وكل فرح وكل حزن ، كل حب وكل بغض ، كل تقدم وكل تأخر ،... فى التاريخ لن يذهب هباء فى بحر النسيان . وكل عمل مءا اكان عظيما او متواضعا ، كبيرا او صغيرا فرديا او سياسياً ، من الكبار ام الصغار ، سجله الزمن التاريخى (Chronos) او تجاهله ... كل ذلك سيكون لحمه الدينوية وموضوعها . فلا يزول اى شئ فى الاسكتولوجيا ، لانها لا تتحقق الا فى صميم التاريخ البشرى .

٢. ولقد اعتبر Paul Evdokimov الاسكتولوجيا " بعدا وجوديا للزمن كامنا فى التاريخ " فليست الاسكتولوجيا حدثا مستقبليا خارجا عن الانسان — وام كان فيه شئ عن ذلك — بل هى حدث " ينتظره " الانسان ويمهده بل ويستعجله فيصنعه فى تاريخه (راجع ٢ بط ١٢/٣) . وهذا ما صرح به يسوع عندما قال : " ان ملكوت الله بينكم " (لو ١٧/٢١) . فليس الملكوت فى المستقبل البعيد ، بل ان مجده اوشك ان يتجلى " (١ بط ١/٥) بل هو حاضر وعامل فى تاريخ البشر . فان الاسكتولوجيا قد "بدات " فعلا (G. Florowsky) وهى تتحقق فى التاريخ Jeremisa اعتمادا على اوعسينطس) فى صميم الزمن وفى عمق الافعال البشرية وفى كنه الاحداث التاريخية مثل " الخميرة " التى تخمر " العجين " (متى ١٣/٣٣) ، فتضفى هكذا على التاريخ قيمة غير متوقعة ، وتحت البشر على تشييد

مجتمعاتهم البشرية وصنع تاريخهم البشرى ، حثا هو بمثابة قوة دافعة تكمن فى اعماقهم . فان قوى ما وراء التاريخ تحيا فى التاريخ وتعمل فيه وتؤثر فيه (P . Evdokimov) . وان الزمن يحمل تليولوجيا الابدائية .

رابعا : جدلية التاريخ وما وراء التاريخ

نصل الى النهاية مطافنا . فاذا عدنا الى تمييز اوغسطينس بين المدينتين واستخدمنا بعض التعابير المعاصرة قلنا مع Yves Congar ان المدينة الارضية هى مثل (Parable) — " مدينة الله " بمعنى انها تعبير متستر عن الملكوت ، ومع Etienne Gilson انها ضاحتها Faubourg ومع Charles Peguy انها صورة Image بيت الله وبدايته (Commencement) ومحاولة اولى له " Ebauche .

وان هذه العلاقة الجدلية بين " المدينة السماوية " و " المدينة الارضية " سواء انظرنا من زوايا الابدائية العاملة فى التاريخ — وهى حركة التجسد الالهى — ام من زوايا التاريخ الذى يكتمل ويتجلى فى الابدائية — وهى حركة الصعود الالهى ، فانها على صورة الانسان صانع التاريخ وهومواطن الارض / السماء التاريخ / ما وراء التاريخ .

وان الانسان هذا يتعاون مع الله لصنع تاريخه ، بل وتاريخهما :

" وان الصانع المطلق للتاريخ هو المسيح " وفيه وحدة تصبح البشرية (...) هى ايضا صانعة التاريخ " (P . Evdokimov) .

وهذا ما نسميه التاريخ البشرى يفتحنا على السر ، سر قصده الله الازلى الذى تجسد فى تاريخ البشر ، داعيا اياهم الى ان يصنعوا معه وفيه تاريخهم وقد اصبح تاريخ

الله تاريخنا الهيا — بشريا يتسم بالخير المطلق ومصدره (الاركيولوجيا) وغايته
التليولوجيا ونهايته (البروسيا و الاسكتولوجيا) الله هو فى معركة مع الشر
المطلق سيد هذا العالم ، ودين (يو ١١/٦) تاريخا بشريا — الهيا يتصارع فيه سر
التقوى العظيم " وهوان الله ظهرا بشرا (اطيم ١٦/٣) مع سر الالحاد " (٢ تس
٧/٢) وتتحارب فيه القوات السماوية والتتبنن الذى " القى الارض " (رؤ ١٢)
تاريخ الله الذى اصبح بشر وتاريخا ، وتاريخ الانسان الى يصبح الها (ايريناوس
— اثناسيوس) فى تلاحم حياتى وتعاون عملى

الخاتمة

ثمة غائب فى حديثنا عن لاهوت التاريخ البشرى ، وهو الروح القدس .
فنكاد لم نذكره ، ورغم ذلك فهو " حاضر " فى حديثنا بأكمله ، وإن كان على نمط
" الغياب " عن ذكره .

فهو حاضر فى الأركيولوجيا ، ولا سيما فى تكوين صورة الأب والابن فى
الإنسان ، فيجعل الإنسان كمثالها .

وهو حاضر فى تاريخ الخلاص الإلهى .

وهو حاضر فى اتجاه التاريخ البشرى ، فانه يقود التاريخ البشرى نحو البروسيا
فى معركته مع الألحاد .

وهو حاضر فى اكتشاف الإنسان لسر غايته / معنى التاريخ البشرى ، أى
للتلويجيا .

وهو حاضر فى " التلاحم الحياتى " و " التعاون العملى " بين الله والإنسان ، فى
تشديد " مدينة الله " فى صميم " المدينة الأرضية "

هو حاضر وعامل فى التاريخ الإلهى - البشرى من الألف الى الياء ..

انه حقا هذا الغائب / الحاضر الذى يعمل فى الداخل صامتا ولكن فعلا . . وهو
بهذا المعنى قدوة حية فى التواضع للإنسان الذى يصنع تاريخه . فالإنسان يعمل
خارجا فى صنع تاريخه ، والروح يعمل فيه داخلا مثل الخزاف الذى يصنع
خزفه بكلتا يديه .

الروح القدس ، هذا الغائب / الحاضر ! هذا الصامت / الفعال !

الهوامش

- (١) مُداخلة في مؤتمر " الجمعية الفلسفية المصرية " الثامن ، المنعقد في جامعة القاهرة من ١٧ إلى ١٩ كانون الأول / ديسمبر ١٩٩٦ . وتعتبر نواة هذا الكتاب .
(٢) اعتمدنا أساسا على :

Tomáš Špidlík , L'idée Russe , Une autre vision de l'Homme , Editions Fates , Troyas 1996.

Henri - Irénée Marrou , La Théologie de l'Histoire , Le Seuil , Paris 1968 .

(٣) إذا قارنا ذلك بالإسلام ، وجدنا أن الله "علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة" فقال : " أنبئوني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين " . قالوا : " سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا . إنك العليم الحكيم " . قال : " يا آدم أنبئهم بأسمائهم " . فلما أنبأهم بأسمائهم قال : " ألم أقل لكم إني أعلم غيب السماوات والأرض وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون ؟ " (سورة البقرة ٣١ - ٣٣) . ففي الإسلام أن الله هو الذي يملئ على الإنسان الأسماء ، بيد أن الإنسان في اليهودية والمسيحية هو الذي يسمي الأسماء بدعوة من الله تؤسس بالفعل حرية الإنسان .

(٤) للمزيد من الإستفسار عن ذلك ، راجع كتابنا : سر مشيئة الله وحرية الإنسان - سلسلة " الإيمان والحياة " ١٢ - مطبوعات الآباء اليسوعيين في مصر - القاهرة ١٩٩٢ - ص ٧-٨ و ١٥-١٩ و ٧٣-٧٤ .

(٥) يجب ذكر حدث الخطيئة التي شوهت صورة الله في الإنسان . وهي التي دفعت الله المحب لخليقته أن يخلصها من سلطانها . ولا تعود الخطيئة إلى كون الإنسان جسداً (وروحاً) - كما يفهمه بعضهم - ، بل إلى كونه كائنا مزيجاً من

النهائية (لأنه مخلوق ولا خالق) واللا - نهائية (لأنه على صورة الله كمثاله) .
فإن تواجد عنصرين متناقضين (النهائية / اللا - نهائية) هو بمثابة إمكانية
الوقوع في الزلة .

(٦) راجع في هذا الصدد الفصول الثلاثة الأولى من كتابنا : مدخل إلى الأسرار
- سلسلة " الأسرار والحياة " ١- مطبوعات الآباء اليسوعيين في مصر -
القاهرة ١٩٨١ .

(٧) معتقد اعتمد على رؤ ٣٠ / ٣ - ٦ وادعى أن المسيح سيعود ليملك مع
قديسيه في الأرض " ألف سنة " .

(٨) نفضل من جهتنا هذا التعبير على التعبير " قصور في الكيان "
(Henri - Irénée Marrou : " déficience dans l'être ") ، لأن الكيان
كله خير ؛ وأما المزيج من الخير والشر ففي الوجود التاريخي ، ولا في الكيان .

